

خطبه الجمعة - الخطبة ٠١٠٢ : خ ١ - إصلاح ذات البين - ج ٢ : الكلية .
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٥-١١-٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخطبة الأولى :

الحمد لله نعمه ، ونستعين به ونستترشده ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر .
وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والنشر ، ما اتصلت عين بنظر ،
أو سمعت أذن بخبر .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ، ومن والاه ومن تبعه
إلى يوم الدين .
اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، والطف بنا في ما جرت به المقادير ،
إنك على كل شيء قدير .
اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علما ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا
علما ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن
يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

معاني الإصلاح ذات البين

أيها الإخوة المؤمنون ؛ بعض المسلمين يظن أن أوامر الله سبحانه وتعالى قاصرة على الصلاة
والصيام والحج والزكاة ، ولكن الحقيقة أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، فلو أن الله
سبحانه وتعالى قال : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، أمرٌ إلهي ، ولو أنك قصرت في باب الإحسان
، لكنك عاصياً لهذا الأمر ، في سورة الأنفال قوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ النَّافِلِ قُلِ النَّافِلُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

يعني الغنائم التي تؤخذ في الحرب ، هذه الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام
يتولى توزيعها وفق الحكمة الإلهية ، بيت القصيد عند تنمة هذه الآية :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أمرٌ إلهي ، الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نصلح ذات بيننا ، ما هي ذات البين ، قال بعض العلماء : ذات البين هي النفس كما أن الناس اليوم يصلحون بيوتهم ، يطلونها بالطلاء الجيد ، يؤسسونها بأفخر الأساس ، يحسنون مداخل بيوتهم ، كما أن الإنسان ينظف جسده ، كما أنه يعطره ، كما أنه يرتدي أجمل الثياب ، كما أنه ينظف مركبته هو يصلحها يصلح منظرها الخارجي ، الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نصلح ذات بيننا ، حسنت منظر الخلق سنين ، هذا الجسد منظر الخلق إذا التقيت بإنسان ينظر إليك ، يرى نظافتك ، يرى أناقتك ، يرى انسجام الألوان في ثيابك ، إذا دخل بيتك يتأمل البيت يتفحصه ، يتأمل ذوقك في اختيار الأثاث مثلاً ، فهذا منظر الخلق ، ابن آدم طهرت منظر الخلق سنين ، أفلا طهرت منظري ساعة ، أنا أنظر إلى قلبك ، أنا أنظر إلى هذا القلب ، ألا تستحيي مني ، تطهر البيت ، تنظف البيت ، تجمل البيت قد لا يعجبك تزيين المحل التجاري ، وكان قد كلفك آلافاً مؤلفة ، تقول سأغير هذا النظام كله ، طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة ، هذا القلب الذي ينظر الله إليه ، هل فيه غشٌ لأحد ، هل فيه احتيال على أحد ، هل فيه حقد على أحد ، هل فيه غلٌ على أحد ؟ هذا القلب الذي تسعد به إلى أبد الأبد ، قال تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآيات: ٨٨-٨٩]

ماذا فعل أحدنا بقلبه هل أبقيه على حاله ؟

(أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢]

هل شعر بحقدٍ على أحد ، مرضٌ خطير ؟ هل شعر بالأثرة يعني يؤثر نفسه على حساب الآخرين ؟ هل شعر بالاستكبار ؟ إن هذه أمراضٌ نفسية فتاكة تهلك صاحبها في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ، لذلك الله سبحانه وتعالى يأمرنا في هذه الآية التي في سورة الأنفال ، يأمرنا أن نصلح ذات بيننا ، يعني أن نصلح نفوسنا ، أن نجعلها طاهرة ، قال عليه الصلاة والسلام : إن الصلاة طهور . إن الصلاة وحدها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لكن الثقافة وحدها لا تفعل هذا ، إن المطالعة وحدها لا تفعل هذا ، قد تكسب المرء ذكاءً اجتماعياً ، لكن الثقافة وحدها لا تكفي لردع النفس عن غوايتها ، لكن الصلاة ، قال تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٥]

فإذا أحكمت الصلوة بالله عز وجل تطهر القلب من الأدران ، عن أبو هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه في اليوم خمس مرات، ترى هل يبقى من درنه شيء ، قالوا: لا يا رسول الله ، قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا))

[أخرجه البخاري ومسلم]

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:1]

هذا القلب الذي هو قلب النفس ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ

الْقَلْبُ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

وهذا الحديث من روائع بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام ، إن قلب الإنسان المادي ، إن كان نشيطاً فصحته بخير ، وإن كان قد أصيب بعطب فصحته تنبئ بالخطر ، وكذلك قلب النفس إن كان طاهراً من الخطايا أو كان طاهراً من المعاصي ، أو كان طاهراً مما سوى الله .

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

[سورة الأحزاب الآية:4]

إما أن تحب الدنيا ، وإما أن تحب الآخرة ، من أحب دنياه أضر بآخريته ، هذا القلب لا يتسع إلا لشيء واحد فإما أن تملأه حباً لله عز وجل ، فيفيض عليك ، وعلى الناس سعادة ، وإما أن يملأ بحب الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وحبك الشيء ، يعمي ويصم ، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا ، جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤتبه إلا ما قدر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا ، وهي راغمة . فنحن أمام أمر إلهي يقتضي الوجوب .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:1]

أصلح هذا القلب ، طهره ، عليك أولاً أن تطهره ، وعلبك ثانياً أن يصطبغ بصبغة الله ، تخلقوا بأخلاق الله .

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)

[سورة البقرة الآية:138]

إذا استقمت على أمر الله طهرته من المعاصي ، فعاد إلى فطرته السليمة ، وإذا أقيمت على الله إقبالاً عالياً اصطبغ بالكمال ، فصار هذا القلب يفيض رحمةً ، يفيض حناناً ، يفيض تواضعاً ، يفيض حكمةً يفيض رقةً ، يفيض لطفاً ، يفيض عدلاً ، قال أحد الأعراب : اعدل يا محمد ، فغضب عليه الصلاة والسلام ، ونبض عرق له في جبينه ، وكان هذا العرق لا ينبض إلا إذا غضب ، وقال :

((ويلك من يعدل إن لم أعدل ، من يعدل في الأرض من بعدي إن لم أعدل))

[متفق عليه عن أبي سعيد الخدري من حديث طويل]

قالها ، ولا يعني ما يقول ، ولا يعرف مدى هذه الكلمة ، إذا أقبلت على الله فاض قلبك عدالة ، تقول الحق ولو على نفسك ، فاض قلبك تواضعاً ، هذه صبغة الله ، لذلك الأنبياء سحروا أقوامهم ، كيف سحروهم ؟ بالسحر ، لا والله !! سحروهم بكمالهم ، كان الصحابي الجليل يتمنى أن يفدي رسول الله بنفسه ، وقف أحدهم فوق النبي عليه الصلاة والسلام يحميه من السهام التي أتته غزيرة في بعض المعارك ، قال : يا رسول الله صدري دون صدرك ، نحري دون نحرك ، وجهي دون وجهك ، لماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((ارم سعد فداك أبي وأمي؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد]

من شدة إخلاص أصحابه له ، من شدة حبه لهم ، لماذا أحبوه ؟ لعظم كماله ، لعظم رحمته ، لعظم حكمته ، لعظم ألفتة ، لعظم تواضعه ، هذا كله من محصلات الصلاة ، هذا كله من بركات الصلاة ، الصلاة تسمو بالنفس لذلك :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

صلوا بالليل والناس نيام ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل ، والناس نيام ، اتصل بالله تذلل له ، مرّغ وجهك في أعتابه ، قل له : يا رب طهر قلبي مما سواك ، لا تشغلني بأحد سواك ، إذا فعلت هذا سمت نفسك .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه : تعاهد قلبك ، هذا القلب يعني ؛ كيف أن أحدا لا سمح الله ، ولا قدر ، إذا شعر أن شيئاً في عينه غير طبيعي ، إذا شعر أن عينه ضعف بصرها ، إذا شعر أن ذبابة سوداء تتحرك مع حركة عينه ، ماذا يفعل ؟ أول ما يفعل يذهب إلى الطبيب ، يقول لك باللغة الدارجة : عين ليس معها لعبة ، والله الذي لا إله إلا هو ، ينبغي أن تقول هذا الكلام لقلبك ، قلب ليس معه لعبة ، لو أن هذا القلب امتلاً بحب الدنيا ، أو أضر غشاً لأحد ، وأضر حقداً على أحد ، فإن هذا القلب سيخزي صاحبه إلى الأبد .

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآيات: ٨٨-٨٩]

من العيوب ، سليم من السوء ، سليم من المعاصي ، فإله عز وجل يقول :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

وبعضهم فهم الآية فهماً آخر ، والقرآن ذو وجوه ، بعضهم فهم الآية أن العلاقة التي بينكم ، وبين الآخرين يجب أن تصلحها ، إن كنت مؤمناً حقاً فينبغي أن تصلح العلاقة بينك وبين إخوانك ، بينك وبين جيرانك ، بينك وبين من هو أعلى من منك ، بينك وبين من هو أدنى منك ، بينك وبين زملائك في العمل ، بينك وبين زوجتك ، بينك وبين أولادك .

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

كن محسناً ، ليس في الأرض إنسان يستعصي بالإحسان ، بالبر يستعبد الحر ، قال عليه الصلاة والسلام :

((عجبت لمن يشتري العبيد بماله ليعتقهم، لماذا لا يستعبدهم بإحسانه))

إذا فعلت الخير يحبك الناس ، إذا أعطيتهم يحبوك ، إذا سألتهم ييغضوك ، إذا سألت الله يحبك ، فالمعنى الآخر لهذه الآية أصلح العلاقة بينك وبين الآخرين ، ما عبد الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لنيم يغلبن كل كريم ويغلبهن لنيم

وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لنيماً غالباً))

هذه زوجتك ، أما ابنك له عليك حق ، له عليك حق أن تنفق عليه ، وأن تزوجه إن كان هذا في إمكانك .

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلح العلاقة بينك وبين ابنك ، إن كنت ميسوراً فهيئ له بيتاً يسكنه ، فهو ابنك وبضعة منك ، أصلح العلاقة بينك وبين جيرانك ، لا تؤذهم ، لا تؤذهم بقتار قدرك ، لا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده ، أندرون ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته ، وإذا استنصرك نصرته ، وإذا استقرضك أقرضته وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيتته وإن مات شيعته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه وإذا اشتريت فاكهة ، فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك ، يعني ؛ برائحة الطعام النفيس ، إلا أن تغرف له منها.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلح العلاقة بينك وبين جيرانك ، لا تؤذهم بأصوات الإذاعة ، لا تؤذهم بالصياح ، لا تؤذهم بالأقذار .

(فَاتَّفُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 1]

إصلاح ذات البين إصلاح العلاقة فيما بينك وبين الآخرين ، هذا هو المعنى الآخر للآية ، وكل منا بالفطرة والبديهة يعرف أن هذه الكلمة الطيبة تصلح ذات البين ، وأن هذه الكلمة الخبيثة تفسد ذات البين ، عن أبو هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إياكم وسوء ذات البين، فإنها الحالقة))

[أخرجه الترمذي]

عن الزبير رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((ليس حالقة الشعر، ولكن معناها أنه حالقة الدين))

[أخرجه البزار]

يا أيها الآباء ؛ إن جاءت ابنتك إلى بيتك تشكو زوجها ، إن كنت مؤمناً ، فينبغي أن تصلح بينها وبين زوجها بذكر محاسنه ، بذكر صفاته الطيبة ، بذكر استقامته ، بذكر أن دخله حلال ، بذكر أنه مخلص ، بذكر أنه لا يعرف غيرك ، ولو أنه غضب منك ، لا يزال يذكر لابنته مناقب زوجها حتى تتعلق به ، وحتى تذهب مساءً إلى البيت .

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 1]

أما هذا الأب الذي يقول لها : ابقى هنا ، وسأغيظه ، هذا ليس مؤمناً ، لا ينتمي إلى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لا ينبغي أن يكون كذلك .

(فَاتَّفُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 1]

أيها الإخوة المؤمنون ؛ إصلاح ذات البين واسعة جداً ، تبدأ من نفسك ، مروراً بزوجتك وبأولادك ، وبجيرانك ، وبإخوتك ، وبأخواتك ، وبأصهارك ، وبمن معك في العمل ، بمن هو دونك ، بمن هو فوقك .

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 1]

المعنى الثالث : إصلاح بين اثنين

والمعنى الثالث الذي تحتمله الآية ؛ هو أنك عليك أن تصلح علاقة بين اثنين لست أنت طرفاً فيهما ، قد لا تكون أنت طرفاً في هذه العلاقة أنت صديق ، ولك صديقان ، إياك وفساد ذات البين لا تنتقل كلاماً من فلان عن فلان ، فتوقع بينهما ، لقد أفسدت ذات البين لقد جعلت الشقاق بينهما مكان الوفاق ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا يدخل الجنة نام))

[أخرجه مسلم وأحمد]

لو تتبعت معظم ندوات الناس ، وسهراتهم ، في حفلاتهم ، ماذا يقولون : يشرح بعضهم بعضاً ، يغتتاب بعضهم بعضاً ، ينهش بعضهم من لحم بعضهم بعضاً ، هذه المجالس لا ينبغي أن تجلس فيها، لا ينبغي أن تسكت ، لو أنك جلست وسكت ، لشاركتهم في الإثم ، يقول عليه الصلاة والسلام: **((الذنب شؤم على غير صاحبه ، إن رضي به فقد شركه في الإثم ، وإن عيره ابتلي به ، وإن**

ذكره فقد اغتابه))

فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الكافرين ، هذا المجلس مجلس غيبة لا تجلس فيه ، هناك غيبة واجبة يا أيها الإخوة ؛ إن سئلت عن شخص لزواج ، يجب أن تقول الحقيقة ، وإن كتمتها لكنت آثماً، هل يشرب الخمر ؟ نعم ، أيصلي ؟ لا يصلي ، إن كتمت حقيقة في موضوع الزواج فقد وقعت في الإثم ، وهذه هي الغيبة الواجبة ، في موضوعات مصيرية في موضوعات لاصقة بالإنسان ، كزواج ، أو شراكة ، أو بيع ، أو شراء لكن في موضوعات أخرى عليك أن تسكت ، وعليك ألا تسمع ، وعليك أن تنهض من هذا المجلس إذا كان فيه غيبة .

أيها الإخوة المؤمنون ؛ هناك غيبة في القلب ، من حدثته نفسه عن أخيه شيئاً ، ولم يفاتحه فيه ولم يسجل حقيقة الأمر ، فقد اغتابه ، ومن أساء الظن بأخيه ، فقد أساء الظن بربه ، فالآية الكريمة :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:1]

أي أصلح العلاقة بين الناس ، إن دخلت إلى بيت ، وكان متواضعاً ، بيت أختك لا تنتقد هذا البيت ، لأنك إذا انتقدت هذا البيت ، انتقدت مساحته ، انتقدت أثنائه ، أسأت العلاقة فيما بين أختك ، وزوجها ، إن دخلت امرأة على امرأة ، وقالت لها : ماذا أهداك زوجك في هذا العيد ؟ وكان زوجها ضيق الدخل ، مخلصاً لها ، وفر لها الطعام والشراب ، و لكنه لم يقدم لها قطعة ذهبية ثمينة في هذا العيد ، فإن قالت لها : ماذا أهداك زوجك في هذا العيد ؟ تقول لها : لم يهد لي شيئاً ، هذا السؤال فقط ، طرح هذا السؤال ، يفسد العلاقة بين الزوجين ، والتعليق على إجابتها أنه لم يقدم لها شيئاً يفسد العلاقة بين الزوجين ، إياكم وفساد ذات البين ، إياكم !.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:1]

المعنى الأول :

عليك أن تصلح نفسك ، عليك أن تطهر قلبك ، لأنه هو المعول عليه في سعادتك الأبدية .

المعنى الثاني :

عليك أن تصلح العلاقة فيما بينك وبين الناس .

المعنى الثالث :

عليك أن تصلح العلاقة فيما بين شخصين ، أو أخوين أو صديقين ، أو شريكين ، أو أمّ وابنها ، أو أختٍ وأخته ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((ليس منا من فرق))

وأى شيءٍ أعظم من هذا أن ينزع الإنسان عن انتمائه للإسلام ، هذا الذي يفرق بين الأحبة ليس منا لا ينتمي إلي لا أتعرف عليه ، أرفضه ، ليس من أمّتي ، ليس منا من فرق ، وبلاغة هذا الحديث في إيجازه ، فرق ماذا ؟ أي صديقين ، أي شريكين ، أي أخوين ، احرص على أن يكون كلامك مفيداً ، على أن يبعث كلامك الطمأنينة في النفس ، يا رسول الله أنواخذ بما نقول ؟ قال : عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ تَكَلِّتْكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِنَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي]

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، هذا اللسان ! أنا أتصور أن معظم المسلمين لا يشربون الخمر ، ومعظمهم لا يزنون ، ومعظمهم لا يسرقون ، ولكن هذا اللسان الذي يهلكهم ، هذا اللسان الذي يشقيهم ، هذا اللسان هو الذي يحجبهم عن الله عز وجل ، من علامة إيمان الرجل ، انضباط سلوكه ، وفي مقدمة السلوك انضباط لسانه ، لا يسخر ، لا يغتب ، لا يدخل فيما لا يعنيه ، لا يشغله عيبه عن عيوب الناس ، لا يتجسس ، ولا تجسسوا ، أي لا تتبعوا الأخبار السيئة ، ولا تحسسوا ، في حديث لا تحسسوا والتحسس ، تتبع الأخبار الطيبة ، حشري هذا الذي يفعل هذا ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

عن عليّ بن الحسين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[أخرجه الترمذي]

فلو طبق الناس كلام الله عز وجل ، لو طبقوا هذه الآية ، هذا أمرٌ يقتضي الوجوب .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية:1]

أيها الإخوة الكرام ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا غيرنا ، وسيتخطى غيرنا إلينا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

والحمد لله رب العالمين

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم .

وظائف الكليتين ونعمها على الإنسان

أيها الإخوة الكرام ؛ في الأحاديث الشريفة حديثٌ ، ذكرته لكم كثيراً ، كان عليه الصلاة والسلام ، إذا دخل بيت الخلاء ، وخرج منه يقول :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي النَّأْيَ وَعَافَانِي))

[أخرجه الترمذي]

وفي دعاءٍ آخر ، كان يقول إذا أكلَ الطعام :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى في قوته ، وأذهب عني أذاه))

[رواه ابن السني والطبراني عن ابن عمر]

قرأت اليوم مقالة في مجلة شهرية ، تعنى بالشؤون العلمية عن الكلية ، هالني أن الكليتين ، تصفيان في اليوم الواحد ، ما حجمه ألف وثمانمئة لتر ، كدت لا أصدق هذا الرقم ، تأملت فيه ملياً ، عدت إلى مصدر آخر ، الرقم صحيح ، ألف وثمانمئة لتر .

أعتقد أن أسرة متوسطة تستهلك هذا الحجم ، كوقود طوال السنة ، ألف وثمانمئة لتر ، هذا يستهلك طوال العام .

ما قولك أن هاتين الكليتين ، تصفيان في اليوم الواحد من الدم ، ما حجمه ، ألف وثمانمئة لتر ، وأن في الكليتين طريقاً من الأنابيب ، من النفرونات ، دقيقاً ، وطويلاً طويلاً ، طوله ستين كيلو متر في الكليتين ، وأن هاتين الكليتين فيهما طاقة لتصفية عشرة أمثال حاجة الإنسان ، يعني الإنسان يحتاج إلى طاقة من التصفية في الكليتين عشرة أمثال حاجته .

لذلك إذا التهبت الأولى تستأصل ، ويعيش الإنسان حياةً مديدة بكلية واحدة ، أليس هذا من رحمة الله عزَّ وجل ؟ أليس هذا من رحمة الله ، لأن الكلية جهازٌ خطيرٌ خطير ، جعل لك قطعة زائدة ، أو كلية زائدة عن حاجتك .

من منا يصدق ، أن الدم بكامله يمرُّ في الكليتين في اليوم ، ستاً وثلاثين مرة ، الدم بكامله ، يمر في الكليتين في كلِّ أربعة وعشرين ساعة ، ستاً وثلاثين مرة .

وأن هاتين الكليتين تقومان بعمليةٍ في منتهى التعقيد ، تأخذان هي من الدم ، المواد السكرية ، والمعادن ، والبروتينات ، تأخذها ، وتطرحها في الوريد الخارج منها ، والباقي ما زاد من السكريات عن حاجة الدم يطرح في البول .

إذا أصيب الإنسان بمرض السكر ، كيف يعرف ذلك ؟ من وجود السكر في البول ، معنى ذلك أن الكلية ، تأخذ نسبةً نظامية للسكر ، وتطرح الباقي مع البول ، وإذا أكل الإنسان ملحاً كثيراً ، وفحصنا بوله ، نجد أن جزءاً من هذا الملح طرح مع البول .

الكلية كما قال بعض العلماء : تتيح لك أن تأكل كلَّ شيء ، ولولا الكلية لو ارتفعت نسبة الأملاح في الدم عن ثمانية بالألف ، لمات الإنسان ، من الذي يضمن ثبات هذه النسبة في الدم ؟ الكليتان . إذا مصفاةً عاقلة ، كما وصفها بعض العلماء ، مصفاةً عاقلة ، تأخذ نسباً نظامية ، وما بقي من هذه النسب النظامية ، من نسب زائدة ، من سكريات ، من أملاح ، من بقايا أدوية ، هناك أدوية تطرح في البول ، يتغير لون البول ، بسبب أن هذا الدواء مادة غريبة ، تطرحها الكلية مباشرة . فهذه الكلية التي لا يزيد حجمها عن الكمثرى ، تعمل بصمت ، بلا مقابل ، بلا أجر ، بلا تعطيل عن العمل ، كما يفعل الإنسان إذ ذهب ليصفي دمه في كليةٍ صناعية ، يعمل ، ينام ، يدرس ، يتاجر ، يبيع ، يشتري ، يسافر ، وهذه الكلية تعمل بصمت ، ستة وثلاثين مرة ، يدخل الدم إلى الكليتين في اليوم الواحد ، وفوق هذا وذاك ، اكتشف العلماء أن الكليتين غدتان ذواتا إفراز داخلي ، أي أنهما تفرزان هرمونات تضبط ضغط الدم .

إذا التهبت كلية الإنسان يختل ضغطه ، هذه الكلية تفرز هرمونات ، لتنظيم ضغط الدم ، وتفرز هرمونات لتلاشي فقر الدم ، وتفرز هرمونات لضبط السوائل .

حدثني أخ كريم ، قال لي : قبل سنوات ، على أثر تناول طعام سكري كثير ، صرت أشرب في اليوم عشرين ، أو ثلاثين مرة ، أو مئة مرة ، وكان شغلي الشاغل ، أن أذهب لدورة المياه لأفرغ الماء الزائد ، أصاب الكلية التهابٌ ، فاضطرب ميزان السوائل ، ولو اضطرب ميزان السوائل ، لوجب أن يبقى الإنسان إلى جانب الصنبور والمرحاض طوال حياته ، ألا يقتضي أن يشكر الإنسان ربه على نعمة الكلية ؟

إذا دخل النبي إلى بيت الخلاء وخرج ، كان يقول :

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني))

أي البولة ، إذا ارتفعت البولة في الدم ، لو أن الكلية توقفت عن العمل ، وارتفعت نسبة البولة في الدم ، اسألوا الأطباء ماذا يحدث ؟ يتشنج الإنسان ، تضعف ذاكرته ، يختل عمله ، يغضب لأتفه الأسباب ، يحطم أساس البيت ، يا لطيف ، إذا ارتفعت نسبة البولة في الدم ، هؤلاء الذين تتوقف

كليتهم عن العمل ، فجأة وترتفع نسبة البولة في دمهم ، لهم أطوارٌ غريبة ، لا يحتملهم أهلهم ، لشدة غلظتهم ، ولشدة عنفهم ، ولشدة غضبهم لأتفه الأسباب ، وإذا استمر ارتفاع نسبة البولة ، يموت الإنسان فوراً .

لذلك هاتان النعمتان ، ونعمة المثانة ، أنها تستقبل كل ثانيةٍ نقطتين من البول ، كل عشرين ثانية ، تجمعها لك ، حتى تصبح بحجم لتر ، عندئذٍ تفرغها ، لولا هذه المثانة لكانت حياة الإنسان صعبةً جداً ، إذا كان الطريق مفتوحاً ، وكل عشرين ثانية نقطتين بول ، والله حياة لا تطاق .

إن كرامة الإنسان مرهونةٌ بهذا الجهاز ، وأحياناً يصاب الإنسان في سن متقدمة ، ببعض الضعف في العضلات ، ماذا يسمعه الأهل ؟ كلماتٍ قاسية ، هذا الذي لا يستطيع أن يضبط نفسه ، يصبح موقفه حرجاً جداً .. فنعمة المثانة ، نعمةٌ ثانية .

يا أيها الإخوة المؤمنون ؛ لا يكن الإنسان كالبيهيمة ، كالدابة ، تأكل

(يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ١٢]

هكذا ربنا وصف الكفرة يتمتعون ، ويأكلون ، كما تأكل الأنعام والنار مثوى لكم .

الحمد على النعمة أماناً من زوالها ، يعني إذا الإنسان خرج من بيت الخلاء ، وقال : الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني .

الحمد لله الذي جعل هذين العضوين ، الكليتين ، يعملان بانتظام ، فهذا الحمد على نعمة على سلامة الكليتين ، أماناً من التهابهما ، وأماناً من عطبهما ، وأماناً من توقفهما توقفاً مفاجئاً .

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يُقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت تباركت ربنا وتعاليت ، لك الحمد على ما قضيت ، نستغفرك ونتوب إليك اللهم هب لنا علماً صالحاً يقربنا إليك .

والحمد لله رب العالمين